بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وأهب النعم والصلاة والسلام على من أوتى جوامع الكلم

(وبعد)

فإن هذا البحث: "**أثر النزعة الفقهية والكلامية فى الشعر الأموى**".

يحوى موضوعاً جديراً بالمتابعة والملاحقة فى خضم عظيم من تراث فكرى وثقافى وأدبى ما يجعل الباحث يعيش فى مراكضة معوصاته إذ أنه يلمس جانبا خطيراً ومهما من جوانب تراثنا الفكرى.

وفى مرحلة من أحرج مراحله وفيه من المزالق ما يجعل الباحث يتحسس من محاولاته حتى لا تطبش منه سهام البيان فرب جرة قلم جرت على صاحبها ويلات الحسرة والندم.

وهذا الموضوع أكبر من أن يتناول فى مثل هذه الصفحات المعدودات إذ هو متشعب الجوانب متراحب الأرجاء وتلك خطورة أخرى وأمانة ثقيلة تقع على عاتق الباحث هنا.

ومهما يكن من شئ فتلك محاولة راكضة، خلف هذا الموضوع أسفرت عن هذه الأطروحة المتواضعة التى جاءت على النحو الآتى:

١- مقدمة وتوطئة مهدت وكشفت عن ملابسات موجات المد السياسى وأثرها فى الحركة الفكرية ابان العصر الأموى.

٢- كشف عن حقيقة النزعة الفقهية والكلامية وتوضيح معنى الفقه ومعنى الكلام.

٣- ملامح النزعة الفقهية.

- حول الخلافة والإمامة (أكبر قضية فقهية أثيرت فى هذا العصر).

٤- ملامح النزعة الكلامية. - "نزعة التكفير".

٥- نهاية المطاف.

وأنى لأرجو أن أكون قد وقفت فى هذه المتابعة سائلا المولى نعمة التأييد والقارئ منحة التصويب والتسديد.

الأستاذ الدكتور

عبد الباسط سعيد عطايا

أستاذ الأدب والنقد

وعميد كلية اللغة العربية بالمنوفية

توطئة فى الموجات السياسية وأثرها فى الحركة الفكرية والثقافية

لا يخفى على دارس التاريخ الإسلامى أن العصر الأموى ولد فى رحم فتنة سياسية كان لها أثرها البالغ فى تاريخ الإسلام والمسلمين حتى وقتنا الشاهد، وكان مقتل عثمان بن عفان بداية تلك الفتنة التى تلاحقت أحداثها وخطواتها فى سرعة دافقة استفزت كل المعنيين بالشأن الإسلامى وقضايا الأمة المتعددة، وإذا كان العصر الأموى قد بدأ تاريخيا بولاية معاوية بن سفيان فإن المد الفقهى والكلامى للفرق المتحاربة فى ساحة الفكر قد بدأت قبل ذلك وبخاصة فى ساحة النزاع السياسى الذى اشتد أواره منذ قبول على بن أبى طالب مبدأ التحكيم وخروج نفر من أشياعه على هذا المبدأ واحتدام الخلاف بين الشيعة والخوارج أدى إلى ظهور فرقة أخرى وهكذا تعددت موجات المد الفكرى والعقدى فالمرجئة مثلا حاولت التوقف والتمهل بين هذين الفريقين المتصارعين: الخوارج – الشيعة– اللذين كانا يصدران عن عقيدة وفكرة اعتقداها ووقفا ضد بنى أمية على الرغم مما بينهما من خلاف شديد وذلك حول مبدأ الإمامة والخلافة، وكان هذا فى البداية شأنا سياسيا محضا– غير أن هذا الفريق الثالث (المرجئة) بعد أن كان مذهبا سياسيا أصبح مذهبا فكريا بعد أن بحث فى أمور لا هويته وكانت نتيجة بحثهم تتفق ورأيهم السياسي فأهم ما بحثوا فيه تحديد: الإيمان (والكفر) والمؤمن والكافر وقد دعا إلى هذا البحث أنهم رأوا الخوارج يكفرون من عداهم والشيعة كذلك، غلاة الخوارج فعدوا كل كبيرة كفراً، وغلت الشيعة فعدوا الإعتقاد بالإمام ركنا أسياسيا من أركان الإيمان فكانت النتيجة الطبيعية أن يعرض على بساط البحث ما الكفر وما الإيمان.[1]

(١) فجر الإسلام – أحمد أبن٠ ص ٤٤٤– الهيئة المصرية العامة للكتاب–الأعمال الفكرية.

ويرى أحمد أمين أيضا: أن الخوارج "فى أول أمرهم كانت صبغتهم سياسية محضة ثم نراهم فى عهد عبد الملك بن مروان قد مزجوا تعاليمهم السياسية بأبحاث لاهوتيه وأهم ما قرره الخوارج فى ذلك أن العمل بأوامر الدين من صلاة وصيام وصدق وعدل جزء من الإيمان "ليس الإيمان الاعتقاد وحده"[١] ولما مدح جرير عبد الملك ابن مروان قائلاً له:-

الله طوقل الخلافة والهدى ∴ والله ليس لما قضى تبديل

إن الخلافة بالذى أبليتم ∴ فيكم فليس لملكها تحويل[٢]

هنا بذات فكرة: "القدر" وقضية الجبر والاختيار ويرى الدكتور محمد على أبو ريان أن مشكلة "الجبر والاختيار من أولى المكشلات التى ثار الجدل حولها على عهد بنى أمية فانقسم المسلمون بصددها إلى جبرية يذهبون إلى أن أفعال العباد مقدرة أزلاً وأنها تصدر عن إرادة الله دون تدخل من العبد، ثم إلى قدرية يقولون بحرية الإرادة وأن الإنسان خالق أفعاله حتى للجزاء الأخروى معنى وتعليل"[٣].

ويرى أيضا: "أن اختلاف الفرق من خوارج وشيعة ومرجئة حول الإمامة اتخذ طابع الخلاف السياسي الحزبى الذى لا يخرج عن دائرة الفروع ولا يمس الأصول الاعتقادية إلا عند الغلاة المتطرفين من كل فريق، وأما اختلافات الفرق الكلامية من جبرية وقدرية ومشبهة ومعتزلة وأشعرية فهى صور من صور الجدل حول العقائد ومن ثم فإن هذه الفرق الكلامية تعتبر فرقا دينية

(١) فجر الإسلام٤١١.

(٢) ديوانه ص ٣٥٦- دار الكتب العلمية بيروت.

(٣) تاريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام- دار المعرفة الجامعية ط٤ ١٩٨٠ ص٢٦٧.

أصولية"[١]. وربما وقعت أيدينا على ما يعزز ذلك من آثار شعرية غير أن هناك من الفرق من لا يفرق بين الشأن السياسيى والشأن العقدى- وبخاصة عند أولئك الذين يرون أن الإمامة جزء من أصول العقائد كالشيعة مثلاً.

ولم تكن النزعة الفقهية بعيدة عن هذا المعترك حول مبدأ الإمامة وما نجم عن الخلاف حولها من نشأة فرق كلامية فالحديث عن الإمامة من يكون أحق بها كلام يدور فى فلك جزء من الفقه أو قسم من أقسامه هى السياسة الشرعية وقد يطلق الفقه أيضا على الإدراك والوعى بالكلام ومعرفة دقائقه.

وقد ورد فى التعريفات – للقاضى الجرجانى قوله فى تعريف الفقه: "**الفقه هو فى اللغة عبارة عن فهم غرض المتكلم من كلامه**".

وفى الاصطلاح هو العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من أدلتها التفصيلية، وقيل: هو الإصابة و"الوقوف على المعنى الخفى الذى يتعلق به الحكم وهو علم مستنبط بالرأى والإجتهاد....."[٢].

أما علم الكلام فهو: "علم يبحث فيه عن ذات الله تعالى وصفاته وأحوال الممكنات من المبدأ والمعاد على قانون الإسلام....."[٣].

ويقول الشيخ مصطفى عبد الرازق: "ولسنا نعرف لغير الفارابى من علماء الإسلام هذا التمييز بين الكلام والفقه: بأن الأول يتعلق بنصرة العقائد والشرائع

---

(١) نفسه ص١١٨- ١١٩.

(٢) التعريفات، للجرجانى- مادة- الفقه- ومادة" الكلام" ص ٢١٦، وص ٢٣٧- دار الكتاب العربى.

(٣) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص٢٥٧ ط٣- لجنة التأليف والترجمة والنشر.

التى صرح بها واضع الملة، على حين يتعلق الثاني باستنباط ما لم يصرح به واضع الملة مما صرح به فى العقائد والشرائع جميعاً....."[١].

إذن: فالفقه مجاله فى الأحكام الشرعية التى تتعلق بأفعال العبد أى هو معيار لضبط سلوك الإنسان على وفق ما شرع الله – أما علم الكلام فهو يحث فى أمور عقائدية تتعلق بمسائل القدر والجبر وما شابه ذلك.

هذا وإن كان التدوين لهذه العلوم والمعارف لم يكن قد أخذ طريقه بعد فى العصر الأموى وإنما يمكن القول بأن البدايات كانت قد هيأت السبيل لنهضة علمية فى علوم الفقه والفلسفة شهدها العصر العباسى وما تلاه من عصور يقول مصطفى عبد الرازق عن التدوين فى هذا العصر بأنه: "لم يكن فى جملته إلا بداية ولم يصل إلينا من مؤلفات ذلك العهد شئ"[٢].

"أثر النزعة الفقهية والكلامية فى الشعر الأموى"

لم يكن الأدب عامة والشعر بخاصة ليقف بعيداً عن أحداث حياة منشئيه فالأديب إنسان يعيش فى مجتمع يمور بحركة دائبة دوارة لا يملك حيالها إلا أن يكون له منها موقف أيا كان ذلك الموقف: إيجابا أم سلباً... فالإيجابية التى تجعل الأديب والشاعر يعيش فى خضم أحداث عصره موقف كما أن السلبية التى تدفعه إلى الابتعاد أو الأزوار عن تلك الأحداث موقف أيضا ولكل وجهة هو موليها، وله دوافعه ومناشطه التى نهضت به أو نهض بها فأنشأ شعراً ينم على ذلك الموقف أو هذا وهذا إن دل على شئ فإنما يدل على أن الأديب والشاعر

(١) نفسه ص ٢٨٨.

(٢) نفسه ص ٢٨٨.

ملتزم بفنه كما هو ملتزم بطبعه ولست فى حل هنا من مناقشة الالتزام فى الأدب فلذلك مجال واسع لست بصدده الآن غير أن الذى يحرك القلم منى آنئذ هو الكشف عن تلك النزعة الفقهية والكلامية التى أثرت فى الشعر الأموى، وهل كانت لهذه النزعة حقاً أصداء قوية تتردد فى أعطاف القصيدة؟ وهل استطاع الشعر فى العصر الأموى أن يلمس هذه الأحداث الفكرية والثقافية؟ وهل نهض الشعراء حقا بهذه التجربة التى نقلت الشعر العربي من طور إلى طور ونحت به منحى جديداً لم يكن يألفه من قبل من جراء هذه الفتن التى جدت؟ وهل كان الشعر الذى استجاب أو عكس هذه الأحداث الفكرية أمينا وصادقا فى عرض القضايا وهل يمكن الاعتداد به مصدراً من مصادر التعريف أو التاريخ لحركة علمية ناهضة؟ وهل يعد تدوينا أو قل هل هو يعد باكورة للتدوين الأدبي لقضايا فكرية وسياسية من هذا القبيل؟ كل هذه التساؤلات تطرح بقوة ونشاط فى هذا الصدد وأنا معنى بتلك المعالجة السريعة واللافتة لهذه الإشكالية فى تاريخ الأدب العربى وبخاصة فى عصر من أهم عصوره الزاهرة فالعصر الأموى بداية "كان عصر تجديد أيضا بل قد كان عصر تجديد قوى ظاهر فى اللفظ والمعنى" فقد حاول الشعر فى هذا العصر أن يتجدد لا فى لفظه ومعناه فحسب بل فيهما وفى الموضوع أيضا"[1].

ويرى د/ طه حسين: أن التجديد فى العصر الأموى نال الشعر فى نوعين "لم يكن قد ألفهما الجاهليون أو على أقل تقدير لم يكن هؤلاء الجاهليون قد أحسنوا فهمهما والعناية بهما: الأول نشأ عن حياة الترف والغنى والثروة وهو الغزل..... أما الفن الآخر الذى استحدث أيام بنى أمية فهو الشعر السياسي

(١) حديث الأربعاء – طه حسين – ص ١٤ ج ٢– الطبعة ١٢ دار المعارف.

وقد نشأ عن استحالة الخلافة إلى ملك وعما كان من حرب بين العصبيات من جهة ومن حرب بين العصبية والدين من جهة أخرى"[١].

وقد سبق أن ألمحت إلى أن النزعة الكلامية والفقهية قد نشأت فى محضن تلك الفتنة السياسية التى اشتعلت حول منصب الإمامة أو الخلافة وكانت تلك المعامع الشعرية التى أشعلها الشعراء كل لوجهته ولحزبه ولمعتقده ناهض.

ملامح النزعة الفقهية

وتأسيساً على ما سبق من بيان معنى الفقه ومجال عمله يمكن القول بأن ملامح هذه النزعة الفقهية لم تتعد بعض النقاط التى أستغلها بعض الشعراء فى عرض ما يعرضون من لقطات شعرية فى غير مجال وفى غير غرض إذ ربما وجدنا شاعراً يستغل معنى اللمم وما ورد فيه عند بعض الفقهاء والمفسرين فى غرض بعيد عن الجد والالتزام على غرار ما يقول الشاعر الأموى وضاح اليمن:

إذا قلت يوما نولينى تبسمت ∴ وقالت معاذ الله من فعل ما حرم

فما نولت حتى تضرعت عندها ∴ وأعلمتها ما رخص الله فى اللمم[٢]

وجرير نجد لديه أيضا من ملامح هذه النزعة الفقهية إذ يلمس عدل عمر بن عبد العزيز الذى تجلى فى توزيعه الصدقات وأموال الخراج على وفق ما شرع الله وقضى فى كتابه فيقول:

إن الذى بعث النبي محمدا ∴ جعل الخلافة فى الإمام العادل

---

(١) نفسه ص ١٥، ١٩.

(٢) العصر الإسلامى . د. شوقى ضيف- ص١٧٨- دار المعارف ط٨.

ولقد نفعت بمـــا منعـــت تحرجـــا ∴ مكس العشور على جسور الساحل

قد نال عدلك من أقـــام بارضـــنا ∴ فإليـــك حاجـــة كـــل وفـــد راحـــل

إنى لآمـــل منـــك خيـــراً عـــاجلا ∴ والـــنفس مولعـــة بحـــب العاجـــل

والله أنزل فى الكتـــاب فريضـــة ∴ لابن الســـبيل وللفقيـــر العائـــل[1]

وردف قوله تعالى:[2].

وكذلك ما ورد عند الفرزدق من استخدام الحلف والإستثناء منه والقتل فـــى غرضه فيقول:

يا أخت ناجية بـــن ســـامة إننـــى ∴ أخشى عليك بنى إن طلبوا دمى

فإذا حلفت هناك أنـــك مـــن دمـــى ∴ لبريئـــة فتحللـــى لا تـــأثمى

فلئن سفكت دمـــا بغيـــر جريـــرة ∴ لتخلـــدن مـــع العـــذاب الألأم

ولئن حملت دمى عليـــك لـــتحملن ∴ ثقلا يكون عليك مثـــل يلملـــم[3]

وجرت مساجلة بين عبد الملك بن مروان ووالية على العراق الحجاج فـــى توزيع الخراج أيضا فورد عن أبى عبدة معمر بن المثنى قال: لما قتل الحجـــاج

---

(١) ديوانه ص ٣١٣ دار الكتب العلمية- بيروت -لبنان.

(٢) سورة الأنفال آية رقم: (٤١).

فالشاعر أشار إلى منع عمر بن عبد العزيز ماسنه بعض الأمويين من لعن على بن أبى طالب وأهل بيته ومنع أخذ أموال الناس بالباطل. كما ألمح إلى ماورد فى قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾

(٣) العصر الإسلامى ص١٨٧- وكذا ديوانه ٢/٢٢٥-٢٢٦.

ابن الأشعث وصفت له العراق وسع على الناس فى العطاء فكتب إليه عبد الملك: أما بعد فقد بلغ أمير المؤمنين أنك تنفق فى اليوم ما لا ينفقه أمير المؤمنين فى الأسبوع وتنفق فى الأسبوع ما لا ينفقه أمير فى المؤمنين فى الشهر ثم قال منشداً:

عليك بتقوى الله فى الأمر كله ∴ وكن يا عبيد الله تخشى وتضرع

ووفر خراج المسلمين وفيأهم ∴ وكن لهمو حصنا تجير وتمنع[1]

فمفردات الأبيات مفردات فقهية وعظيمة والملمح فقهى محض- وكذلك ما ورد عن الحجاج أنه لما حضرته الوفاة أنشأ يقول:-

يارب قد حلف الأعداء واجتهدوا ∴ بأننى رجل من ساكنى النار

أيحلفون على عمياء ويجهمو ∴ ما علمهم بعظيم العفو غفار[2]

فيرى الحجاج: أنهم يحلفون هنا كذبا ويفتئتون على الله- وهذه قضية فقهية لها تشريعات معروضة فى مظانها من كتب الفقه[3].

وإن كانت هذه اللمسات الفقهية والمعالجات يسيرة فى هذا العصر إذ كانت بدايات النهضة انتشرت وذاعت فى العصور اللاحقة وبدت فى معالجات لمسائل أدق وأعمق من هذا وذلك على غرار ما ورد فى مجالس العلماء من أن الرشيد كتب فى ليلة من الليالى إلى أبى يوسف صاحب أبى حنيفة أفتنا حاطك الله فى هذه الأبيات:

---

(١) البداية والنهاية – ابن كثير ٩/١٤١-١٤٢- دار الفكر العربي.

(٢) نفسه ٩/١٥٤-١٥٥.

(٣) راجع كتاب الإيمان من المهنى لابن قدامة ١٠ طبعة دار الغد.

فإن ترفقى ياهنـــد فـــالرفق أيمـــن ∴ وإن تخرقى يا هند فالخرق أشأم

فأنـــت طـــلاق والطـــلاق عزيمـــة ∴ ثلاثا، ومن يخرق أعق وأظلـــم

فبينى بها إن كنـــت غيـــر رفيقـــة ∴ وما لا مرئ بعد الـــثلاث مقـــدم

فقد أنشد البيت عزيمة ثلاث، وعزيمة ثلاثا بالنصب، فبكم تطلـــق بـــالرفع؟ وبكم تطلق بالنصب....[١]"

يقول أحمد أمين: إن الدولة الأموية لو قدر لها أن تستمر فى الحكم الـــزمن الذى حكمته الدولة العباســـية لظهـــر علـــى يـــديها مـــن الحركـــات العلميـــة والاصطلاحات الاجتماعية قريب بما ظهر على يد العباسيين" [٢] وهذا يعزز ما ألمحت إليه من أن بدايات النزعة الفقهية فى العصر الأموى كانت فاتحة ماجـــدة لنهضة تطورت وتلاحقت وتكاملت فى تلك المنظومات العلمية التى لمسناها فـــى مختلف فنون العلم: من فقه ونحو وغيرهما ودعك من هذا الآن وتعـــال لنـــرى أخطر قضية فقهية تمس جانب الحكم والدولـــة وهـــى مـــن صـــلب السياســـة الشرعية[٣] التى استقرت قواعدها وأعرافها فى كتب الفقه السياســـي إلا وهـــى قضية الخلافة والإمامة.

(١) مجالس العلماء – للزجاج ٣٣٨/٣٣٩– ت عبد السلام هارون – وزارة الأعلام بدولة الكويت.

(٢) ضحى الإسلام ٢٠/١– النهضة المصرية العامة للكتاب.

(٣) ينظر: باب الإمامة فى المغنى لابن قدامة– وبدائع الصنائع للكسائى – وحاشية الدسوقى على الشرح الكبير.

حول الخلافة والإمامة.

إن هذه القضية تعد من أخطر القضايا التى فجرتها تلك الفتنة السياسية التى حدثت بين (على ومعاوية) وقد تشابكت من أجلها فرق عديدة بمختلف الأسلحة: بالسنان والبيان، حيث قامت حروب طاحنة أودت بكثير من المسلمين كما قامت مساجلات شعرية وأدبية حملت وجهات كل فريق من الفرق المتحاربة وإن كانت قد مضت ما خلفته حروب السنان إلا أن ما خلفته حروب البيان ظل يحمل ذلك المعنى وتلك الأفكار التى استفحلت ونهض بها العلماء والفقهاء وما زالت على وقتنا هذا تطل برأسها بين الحين والآخر ولعل أبزر صدى لتلك القضية ما حدث إبان حكم الملك فؤاد فى مصر وكتاب الشيخ على عبد الرازق- الإسلام وأصول الحكم- وربما أطلت برأسها فى نهايات القرن العشرين والكتب والبحوث حول هذه القضية عديدة: متعاندة غير أن الذى يعنى الباحث فى هذه الأطروحة هو تلك الملامح التى ترددت فى أعطاف الشعر الأموى ذلك الذى يعد أول تسجيل بياني – أدبى- لهذه القضية.

وأول ما يلقانا فى هذا الصدد ما نلمسه لدى الشيعة التى بايعت علياً ودافعت عنه حيث رأت أن الإمامة إنما تكون للأفقة والأعلم بالقرآن والسنة- وتعنى بذلك- عليا (ﷺ) وربما بدأت هذه اللمسة حين تمت مبايعة عثمان (ﷺ) فقد "ترددت أبيات لبعض ولد أبى لهب يتحسر فيها على انصراف الأمر عن بنى هاشم وعن على بالذات وكان فى نظرهم أجدر بها الأمر من سواه لسبقه وفقهه وتقواه الأبيات:-

ما كنت أحسب أن الأمر منصرف ∴ عن هاشم ثم منها عن أبى الحسن

أليس أول مـــن صـــلى لقبلـــتكم ∴ وأعلم الناس بالقرآن والســـنن[1]

فالقائل هنا يقدم تسويغاً لتفضيله عليا على غيره وكشف عن حيثيـــات تلـــك الأفضلية- فهو سابق إلى الإسلام، وأعلم الناس بكتاب الله وسنة نبيه.

ولم يفت أبرز شعراء الشيعة وهو (الكميت) فى هاشمياته أن بفصـــح عـــن أحقية على وذريته من فاطمة بالحكم من غيرهم فيقول مشايعا عليـــاً وذريتـــه ورداً على من أبى ذلك:-

وجدنا لكـــم فـــى آل حـــاميم آيـــة ∴ تأولهـــا منـــا تقـــى ومعـــرب

وفى غيرهـــا آيـــاو آياتنـــا بعـــت ∴ لكم نصب فيها لذى الشك منصب

وقـــالوا ورثناهـــا أبانـــا وأمنـــا ∴ ومـــــا ورثـــــتهم ذاك أم ولا أب

ولكن مواريث ابـــن آمنـــة الـــذى ∴ بـــه دان شـــرقى لكـــم ومغـــرب

يقولون لم يـــورث ولـــولا تراثـــه ∴ لقد شركت فيـــه بكيـــل وأرحـــب

فإن هى لم تصلح لحـــى ســـواهم ∴ فإن ذوى القربى أحق وأقـــرب[2]

ويعلق على هذه الأبيات د/ ضيف فيقول: "واضح أنـــه- الشـــاعر- بنـــى احتجاجه على أقيسة عقلية فهو يستدل بآى القرآن الحكيم فـــى ســـور (حـــاميم) وغيرهما التى تشيد بأهل البيت وقرابتهم من الرسول، مقررة حق ذوى القربـــي

(١) الفرق الإسلامية فى الشعر الأموى د. النعمان القاضى – دار المعارف (عن شرح نهج البلاغة٦/٨).

(٢) العصر الإسلامى د. شوقى ضيف ٣٢٦، ٣٢٧ وديوانه ١٨٦/٢ جمع د. داود سلوم- عالم الكتب ط ٢ ١٤١٧-١٩٩٧م.

من مثل ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾ ومثل ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ ويناقش الأمويين فى نظامهم الوراثى وأنهم لا يدلون للرسول كما يدلى آل بيته فهم ورثته الشرعيون وإلا لورثته القبائل جميعاً وعلى رأسها الأنصار الذين أعز الله بهم الإسلام....."[1].

و(كثير) أيضا له شعر يرى فيه أن الأئمة من قريش – لا فى قريش عامة وإنما فى على والثلاثة من بنيه – فهى ليست قرشية على الإطلاق- كما هو موجود عند بعض الفقهاء الذين جعلوا الشرط فى الإمامة أن يكون الإمام قرشيا- فيقول:

ألا إن الأئمة من قريش ∴ ولاة الحق أربعة سواء

على والثلاثة من بنيه ∴ هم الأسباط ليس بهم خفاء

فسبط سبط إيمان وبر ∴ وسبط غيبته كربلاء

وسبط لا تراه العين حتى ∴ يقود الخيل يقدمها اللواء

تغيَّبَ لا يرى عنهم زمانا ∴ برضوى عنده عسل وماء[2]

فهنا نلمح تطوراً خطيراً فى قضية الإمامة إذ لا يكتفى (كثير) بتقرير هذه الحقيقة فى الأذهان فى زمنه الشاهد، وإنما يسارع إلى قضية (المهدى المنتظر)- وإن ابن الحنفية سبعود من مرقده بعد موته يملأ الأرض عدلاً بعد أن

(١) العصر الإسلامي ص٣٢٧.

(٢) نفسه ص٣٢٣ وانظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ص٣٤٤- دار الكتب العلمية ط٢ ١٩٨٥م.

ملئت جوراً ومن ثم نرى شاعراً آخر هو (دعبل الخزاعي) نسمع له أبياتا يرثى فيها الشيعة ويندد بينى أمية وبزياد بن أبيه ولكنه يعزى فيها نفسه ويحملها على الصبر انتظاراً لمهدى يرد للشيعة حقهم ويسعد الناس بحكمه العادل يقول:

فلولا الذى أرجوه فى اليوم أوغد ∴ لقطع قلبي إثرهم حسرات

خروج إمام لا محالة خارج ∴ يقوم على اسم الله والبركات

يميز فينا كل حق وباطل ∴ ويجزى على النعماء والنفحات

فيا نفس طيبى ثم يا نفس أبشرى ∴ فغير بعيد كل ما هو آت

فإن قرب الرحمن من ذلك مدنى ∴ وآخر من عمرى لطول حياتى

شفيت ولم أترك لنفسى رزية ∴ ورويت منهم منصلى وقناتى[1]

فهنا نلمح أن فكرة المهدى هذه قد تجددت وأصبحت معتقداً ناهضا فى نفوس أصحابها ولا يغيب عناً فى هذا السرد أن اللغة التى وردت فى هذه الأبيات لغة تقريرية أقرب ما تكون إلى المنظومات العلمية ولذا تراها تخلو من وهج الشاعرية التى تتكون خيوطها من صورة فنية، أو كلمة راعشة، أو أسلوب آخذ بلب المعنى، وكأنى بالشاعر هنا يلقى منشوراً سياسياً أو أمنية ووصية وأحسب هذا واضحاً لا يعوز القارئ إلى كبير معاناة فى إدراك هذا الملمح الفنى وربما جاز لى القول بأن ما سبق من أبيات سردت فى هذا المجال لا تخرج عن هذا النطاق- ويبدو أن التجربة والموضوع تمليان على الشاعر هذا النمط من الأسلوب التقريري والفقهي.

(١) الفرق الإسلامية فى الشعر الأموى ص٣٩٧- (عن معجم الأدباء دار الفكر – بيروت ط١١/٣ ص١٠٩).

وقد تردد هذا المعنى لدى غير شاعر من شعراء الشيعة- ومن تابعهم – فهذا (كثير) أيضا تردد فى شعره فكرة المهدى المنتظر – ويعنى به محمد بن الحنفية إذ يقول:

أقر الله عينى إذ دعانى ∴ أمين الله يلطف فى السؤال

وأثنى فى هواى على خيرا ∴ وساءل عن بنى وكيف حالى

وكيف ذكرت حال أبى خبيب ∴ وزلة فعله عند السؤال

هو المهدى خبرناه كعب ∴ أخو الأحبار فى الحقب الخوالى(١)

ومعروف أنه: منذ نشر ابن سبأ دعواه فى أن الإمام عليا لم يمت وأنه سيعود إلى الأرض يملؤها عدلا، تأصلت هذه العقيدة فى نفوس الشيعة ونقلت فرقة الكيسانية عقيدة الرجعة إلى محمد بن الحنفية فأنكروا موته وزعموا أنه يقيم بجبل رضوى بالقرب من ينبع وأنه سيعود من هذا المكان لينشر ظلال العدل والخير على الناس"(٢).

وهذا المعتقد المتجذر فى نفوس الشيعة حملهم على الرد على المعاندين والمناونين وحملوا عليهم بضراوة وقسوة بالغة بدت فى عنف العبارة، وغلط القول، فها هو السيد الحميرى يرد على من خرجوا على الإمام على بداية لقبوله التحكيم:

خوارج فارقوه بنهروان ∴ على تحكيمه الحسن الجميل

---

(١) أدب السياسة فى العصر الأموى ص٢٥٠- أحمد الحوفى وديوان كثير ص٢٦١ دار صادر بيروت (أبو خبيب: عبد الله بن الزبير).

(٢) أدب السياسة ص٢٠٤.

علـــى تحكيمـــه فعمـــوا وصـــموا ∴ كتـــاب الله فـــى فـــم جبرنيـــل

فمـــالوا جانبـــا وبغـــوا عليـــه ∴ فما مـــالوا هنـــاك إلـــى مميـــل

فتـــاه القـــوم فـــى ظلـــم حيـــارى ∴ عمـــاه يعمهـــون بـــلا دليـــل

فضـــلوا كالســـوا لـــم يـــوم عيـــد ∴ تنحـــر بالغـــداة وبالاحيـــل

كـــأن الطيـــر حـــولهم نصـــارى ∴ عكوفا حول صـــلبان الأبيـــل[1]

بل ويعلن دينونته لعلى فيقول الحميرى:

إنى أدين بمـــا دان الوصـــى بـــه ∴ يوم النخيلة من قتـــل المحلينـــا

وبالذى دان يوم النهر دنـــت بـــه ∴ وشاركت كفـــه كفـــى بصـــفينا

تلك الدماء معا يارب فـــى عنقـــى ∴ ومثلها فاسقنى آمـــين آمينـــا[2]

والأمويون أيضا: استغلوا فكرة المهدى المنتظر هذه فترددت فـــى أشـــعار مؤيديهم- بل تعدته إلى أن الأموى يحكم بتفويض من الله- فنرى الفرزدق يقول فى سليمان بن عبد الملك:

أنـــت الـــذى نعـــت الكتـــاب لنـــا ∴ فى نـــاطق التـــوراة والزبـــر

كـــم كـــان مـــن قـــس يخبرنـــا ∴ بخلافـــة المهـــدى أو حبـــر

جعـــل الإلـــه لنـــا خلافتـــه ∴ برء القروح وعصـــمة الجبـــر

---

(١) الفرق الإسلامية فى الشعر الأموى ص٣٧٠ وعن مناقب آل طالب- المازندرانى ٣٧١/٢، ٣٧٢.

(٢) الكامل للمبرد ١٧٥/٢ مؤسسة المعارف بيروت.

كـــم حـــل عنـــا عـــدل ســـنته ∴ من مغرم ثقـــل ومـــن إصـــر[1]

ولست أدرى هل الشاعر هنا جاد فى مقالته تلك أو أنه يهـــذى ويســـتهزئ بالقائلين بهذه الفكرة من شيعة على وبنيه؟ إذ أننا لا نجد ما يعزز هذا الكلام من آراء لعلماء أو فقهاء أمويين أو شايعوا الأمويين مثلما نرى للشـــيعة مـــثلا فـــى أدبيات فقهائهم وعلمائهم.

ولا يفوت (جريرا) أيضا أن يردد هذه الفكرة فى سليمان بن عبد الملك حين أراد أن يعهد إلى ابنه أيوب بدلا من أخيه يزيد فيقول جرير:

إن الإمـــام الـــذى ترجـــى نوافلـــه ∴ بعد الإمـــام ولـــى العهـــد أيـــوب

الله أعطـــاكم مـــن علمـــه بكـــم ∴ حكما وما بعـــد حكـــم الله تعقيـــب

أنـــت الخليفـــة للـــرحمن يعرفـــه ∴ أهل الزبور وفى التـــوراة مكتـــوب

كونوا كيوسف لمـــا جـــاء إخوتـــه ∴ واستعرفوا قال: ما فى اليوم تثريب

الله فضـــــــله والله وفقـــــــه ∴ توفيق يوسف إذ وصاه يعقـــوب[2]

فى مدحه هشام بن عبد الملك- يقول مردداً فكرة الإمام العدل- المهـــدى- الذى أقام الفرائض وتباشرت البلاد بحكمه:

إلـــى المهـــدى نفـــزع إن فزعنـــا ∴ ونستســـقى بغرتـــه الغمامـــا

وحبـــــل الله تعصـــــمكم قـــــواه ∴ فلا نخشـــى لعروتـــه انفصـــاما

رضـــينا بالخليفـــة حـــين كنـــا ∴ لـــه تبعـــاً وكـــان لنـــا إمامـــا

---

(١) أدب السياسة ص١٦٢ وديوانه: ١/٢٦٤- دار بيروت.

(٢) ديوانه ص٣٦.

تباشـــرت الـــبلاد لكـــم بحكـــم ∴ أقام لنا الفرائض واســـتقاما[1]

ففكرة الإمامة – والمهدى– كما لمسناه– انتقلت إلى شعراء بنى أمية الـــذين يشايعونهم وربما كانت هذه المشايعة وليدة مصانعة أو مداراة، أو نفاق ولم تكـــن وليدة إيمان ويقين كما نلمسها لدى شعراء الشيعة.

ولم يفت جريراً أن ينعت الوليد بن عبد الملك بأنه الإمام المصـــطفى الـــذى قدر ذو العرش أن يكون خليفة:

إن الوليد هـــو الإمـــام المصـــطفى ∴ بالنصر هـــز لـــواؤه والمغـــتم

ذو العرش قدر أن تكـــون خليفـــة ∴ ملكت فاعلُ على المنابر واســـلم

ورث الأعنـــة والأســـنة وانتمـــى ∴ فى بيت مكرمة رفيع الســـلم[2]

أما الزبيرون– فقد كانت لشعرائهم أيضا منافحة عن حق عبد الله بن الزبير بالخلافة تأسيساً على قاعدة "الإمامة من قريش": لأن قريشاً أصل الخلافة والحكم والقضاء وسادنة البيت وقاطنة الحجاز مهبط الوحى وبؤرة الإسلام....."[3] وهذا ما صدر عنه شاعرهم ابن قيس الرقيات فى قوله مخاطبا عبد الله بن الزبير:

أنـــت ابـــن معـــتلج البطـــا ∴ ح كـــــديها وكـــــدائها

فالبيـــــت ذى الأركـــــان ∴ فالمســـتن مـــن بطحائهـــا

أو فـــــى قـــــريش بـــــالعلا ∴ فـــــى حكمهـــا، وقضـــائها

---

(١) ديوانه ص٣٨١ وانظر أدب السياسة ص١٦٣.

(٢) ديوانه ص٣٧٠.

(٣) الفرق الإسلامية فى الشعر الأموى ص٥٠٠.

ولأنـــــت أعلمهـــــا بهـــــا ∴ وأصـــــحها فـــــى دائهـــــا

وأتمهـــــــا نســـــــــبا إذا ∴ نســـــبت إلـــــى آبائهـــــا

إن الـــــبلاد ســـــوى بـــــلا ∴ دك ضاق عــرض فضــائها[1]

والبيعة لمصعب تمت على الإسلام ومبادئه فيقول:

على بيعة الإسلام بـــايعن مصـــعبا ∴ كردايس من خيل وجمعـــاً مباركـــاً

تدارك اخرانـــا وتمضـــى أمامنـــا ∴ وتتبـــع ميمـــون التقيبـــة ناســـكا

إذا فرغـــت أظفـــاره مـــن كتيبـــة ∴ أمال على أخرى السيوف البواتكا[2]

كما شاعت بعض المصطلحات فى شعر الزبير بين مثل حزب الله وشرطه الله "أما وصفهم أتهم بأنهم حزب الله والحراس على دينه فواضح فى قول أعشى همدان:

وإنى أمـــرؤ أحببـــت آل محمـــد ∴ وتابعت وحيا ضمنته المصاحف

وقول سراقة البارقى:

جزى الله خيراً شـــرطة الله إنهـــم ∴ شفوا من عبيدا لله أمس غليلى[3]

ويقول د. القاضى النعمانى: " ليس للشعر الزبيرى غير موضوع واحد هـــو السياسة..... فقد سجل عقيدة الزبير بين الأساسية وما تفضى به مـــن ضـــرورة

(١) ديوانه: (ص١١٧- وما بعدها- ت محمد يوسف نجم دار صادر بيروت- والفرق الإسلامية وانظر الفرق الإسلامية ص)٥٠٠.

(٢) ديوانه ص: ١٣١: ١٣٢ والفرق الإسلامية ص٥٠١.

(٣) أدب السياسة ص٢٤٩، ٢٥٠.

كون الخلافة فى قريش فهى عز العرب ورمز وجودهم ولا حياة لهم بدونها/ وهى عماد الخلافة فإذا ما زالت عنها سقط ركنها سقوطا لا ترفع بعد كما يقول ابن قيس الرقيات:

إن تودع من البلاد قريش ∴ لا يكن بعدهم لحى بقاء

لو تقضى وتترك الناس كانوا ∴ غنم الذئب غاب عنها الرعاء[1]

ومصطلح الأئمة من قريش أو الإمامة فى قريش لم يفت الشعر الذى يساند الأمويين إذ رأينا هذا المعنى فى شعر الفرزدق فى قصيدة يمدح فيها سليمان بن عبد الملك يقول فيها:

ألست ابن الأئمة من قريش ∴ وحسبك فارس الغبراء خالا

إمام منهمو للناس فيهم ∴ أقمت الميل فاعتدل اعتدالا[2]

بل إن سليمان بن عبد الملك يغدو (المهدى) الذى ملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً، ونشر الأمن والطمأنينة فى الناس، وقوم صلب الدين بعد التوائه فيقول الفرزدق أيضاً مخاطبا- سليمان:

وقد علم الظلم الذى سل سيفه ∴ على الناس بالعدوان أنك قاتله

وليس بمحى الناس من ليس قاضيا ∴ بحق ولم يبسط على الناس نايله

فاصبح صلب الدين بعد التوائه ∴ على الناس بالمهدى قوم مايله

جعلت مكان الجور فى الأرض مثله ∴ من العدل إذ صارت إليك محاصله[3]

---

(١) الفرق الإسلامية ص٤٩٧، ٤٩٩- وديوانه ص٨٩ والكامل ١٥٣/٢.

(٢) ديوانه الفرزدق ١٠١/٢- دار بيروت للطباعة والنشر.

(٣) ديوانه ٩٠/٢.

أما الخوارج : فقد كانت لهم نظرية أخرى تغاير ما لمسناه لدى الشيعة والزبير بين والأمويين حيث تكونت "عقيدتهم بسرعة حول محور ثابت هو أن الخلافة ينبغى أن لا تحتجزها قريش لنفسها من دون المسلمين فهى ليست حقا لقريش، إنما هى حق لله وينبغى أن يتولاها أكفا المسلمين لها وخيرهم تقوى وورعا ولو كان عبدا حبشيا ومضوا يعتقدون أنهم وحدهم الجد يرون بوصف الإسلام....."[1].

غير أن هذا المعنى لم يركز عليه الشعر لديهم وإنما كانت ومضات خاطفة تتراءى فى ثنايا الحديث عن جهادهم وحسن دفاعهم عن عقيدتهم من مثل قول الشاعر عتبان ابن وصيلة الشيباني وقد وجه أبياتا إلى عبد الملك بن مروان وذلك حين انتصر شيب بن يزيد الشيباني على الحجاج بن يوسف عامل عبد الملك على العراق:

ألا أبلغ أمير المؤمنين رسالة ∴ وذو النصح لو يرعى إليه قريب

فإنك إن لا ترض بكر بن وائل ∴ يكن لك يوم بالعراق عصيب

ولا صلح ما دامت منابر أرضنا ∴ يقوم عليها من ثقيف خطيب

فإن يك منكم كان مروان وابنه ∴ وعمرو ومنكم هاشم وحبيب

فمنا سويد والبطين وقعنب ∴ ومنا أمير المؤمنين شبيب[2]

ويعز على متابع شعرهم أن تقع يده على معالم تلك القضية– قضية الخلافة أو الإمامة – على الرغم من إيمانهم بها وعقيدتهم المتأججة حولها وقد لمس هذا

(١) العصر الإسلامي د. شوقى ضيف ص١٨٦.

(٢) الفرق الإسلامية فى الشعر الأموى ص٤٢٥، والبيان والتبين ٣٢٨/٣.

د. النعمانى فقال معقباً على ذلك: "وقد يبدو غريباً أن يعجز الخوارج وهم أول من فتح ميدان الفقه والفلسفة الدينية فى تاريخ الفكر الإسلامى- عن نقل مبادئهم وتعاليهم على ميدان الشعر، فلم يتحول الشعر لديهم كما تحول لدى الكميت إلى مجالات العقل والمنطق باستدلالاته وحججه وبراهينه وإنما ظل يدور فى مجاله العاطفى تعبيراً عن الذات فيها من عاطفة ومشاعر وأحاسيس"(١) أما خلافاتهم الفقهية التى دارت بين فرقهم فلم "يكن لها من هدف سوى خدمة نشاطهم العلمى فى الجهاد وفى توجيه حروبهم وحياتهم فلم تظهر فى شعرهم إلا نادراً وإن ظهرت كان ظهورها وسيلة لتصوير إيمانهم بها فحسب...."(٢).

وهذا تعليل له من الوجاهة والقبول ويعززه ما يلمسه القارئ لشعرهم من دورانه حول معنى جهادهم وبلائهم فى سبيل عقيدتهم إذ قضوا كل حياتهم فى حروب وصراعات متطاحنة مع الأمويين وغيرهم ممن يخالفونه الرأى والوجهة، وهذا أدى من وجهة أخرى إلى تخليهم عن تلك التقاليد الموروثه والأعراف الفنية للقصيدة العربية- فلم تكن لديهم المطولات أو القصائد التى تفتح بالغزل أو النسيب وإنما هى مقطوعات تعبر عن رأيهم وعقيدتهم وشهادتهم، وإن رثوا شهداءهم وإن هجوا هجوا مناوئيهم وأعداءهم أما الوصف فوصف الوقائع والمشاهد التى دارت بينهم وبين أعدائهم.

وتأسيساً على ما سبق سرده من نصوص شعرية احتدم فيها الجدال حول من هو أحق بالخلافة وأهلها يمكن القول بأن تلك النزعة الفقهية قد أثرت إلى حد كبير فى الشعر الأموى وبدأ الشعر العربي لأول مرة نرى فيه ذلك اللون الجديد من المجادلة السياسية والمناقشات الفقهية وهى من الفقه الدستوري أيضا-

(١) الفرق الإسلامية ص٤٥٣.

(٢) نفسه ص٤٥٤.

ولكن هل يمكن أن يعد هذا لونا من ألوان التجديد فى الشعر الأموى؟! إنه لا شك تجديد فى الموضوعات وإن بدا خافتا باهتا فى الشكل الفنى للقصيدة إذ ظنت فى غالب أمرها على تقليدتها للموروث الفنى اللهم إلا ما نراه من مقطوعات شعرية أو بعض المطولات التى وردت لشعر الخوارج وإن كان هذا الملمح التجديدى ليس تجديداً محضاً خالصاً- أو هو لم يكن أول نوع يحتفل بموضوع يعتنقه أشياعه فجاء شعرهم متشابهاً إذ نلمس هذا أيضاً لدى الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى.

ومهما يكن من شئ فتلك سابقة فى الشعر العربى على مستوى الموضوعات إذ أن موضوع الرئاسة أو الخلافة بمعناه الفقهى والدستورى موضوع جديد أملته ملابسات جديدة وتشريعات جديدة كانت من أصداء (الإسلام) فى الشعر الأموى، كما يمكن القول بعد هذا أن ذلك الشعر يعد وثيقة تاريخية وسياسية حملت أركان تلك الفتنة الكبرى مذ خلافة عثمان وحتى وقتنا الشاهد فأمر الخلافة – كما سبق أن ألمحت- لا يزال يطل برأسه كل حين ولعل آخر ذلك المشهد ما حدث أبان ظهور كتاب " الإسلام وأصول الحكم" للشيخ على عبد الرازق. وسقوط الخلافة العثمانية وآخر ما خلص إليه " على عبد الرازق" فى كتابه هذا هو قوله بأن" الدين الإسلامى برئ من تلك الخلافة التى يتعارفها المسلمون، وبرئ من كل ما هيأوا حولها من رغبة ورهبة ومن عز وقوة، والخلافة ليست فى شئ من الخطط الدينية[1]".

كما ذهب إلى أن لصق موضوع الخلافة بالمباحث الدينية والفقهية من" جناية الملوك واستبدادهم بالمسلمين" حيث" أصبحت تلصق بالمباحث الدينية وصارت جزءاً من عقائد التوحيد يدرسه المسلم مع صفات الله تعالى وصفات

(١) الإسلام وأصول الحكم- على عبد الرازق ص١٠٣ ط ٢ ١٣٤٤هـ = ١٩٢٥م.

رسله الكرام ويلقنه كما يلقن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله..."[1].

وقد أثار هذا الكتاب بمباحثه ضجة كبرى ما زالت تتردد أصداؤها فى الكتابات السياسية وبخاصة تلك التي تدور فى فلك الحكم الإسلامي ومقتضياته.

ولست هنا معنيا بالبحث أو الركض وراء هذه الأصداء فلذلك مجال آخر ومضمار.

وقبل مغادرة هذا الملمح الخاص بالنزعة الفقهية تجدر الإشارة إلى أن أبرز قضية أو مسألة هى تلك التى تختص بقضية الخلافة أو الإمامة ومن ثم لمسنا كثيراً من الطرح الشعرى حولها، ورأينا إلحاح الشعراء عليها بقوة وكل ووجهته أما المسائل الأخرى فكانت من الندرة بمكان الأمر الذى جعلها فى هذه الأطروحة شحيحة قليلة وإن كانت قد فرخت فى العصور اللاحقة وأثمرت والفضل فى تلك البدايات قائم يذكر وبه يشاد وينوه.

ملامح النزعة الكلامية:

سبق أن أشار الباحث فى صدر هذه الأطروحة إلى مفهوم علم الكلام وعلم الفقه ومجاليهما فى البحث والنظر والموضوعات التى جال فيها كل منهما ومعروف أن العصر الأموى قد احتدم فيه الجدل حول مسألة الإمامة وتفرعت عن ذلك مسائل شائكة بل قد أخذت ملامح علم الكلام تتضح شيئاً فشيئا فى تلك المناقشات التى دارت بين الفرق والجماعات يقول د. محمد على أبو ريان "اصطبغت مشكلة الخلافة وقد كانت مشكلة سياسية فى أول أمرها بالصيغة الدينية وفهمت الخلافة على أنها الإمامة وأصبح للإمامة مفهوم خاص عند الشيعة اتباع على وتعرض المسلمون أيضاً لأفضلية على على معاوية أو العكس وهذا أيضا متصل بمشكلة الإمامة وتناقشوا فى مرتكب الكبيرة مصيره أهو فى

(١) نفسه ص١٠٢.

النار أو فى الجنة أو فى منزلة بين منزلتى الكفر والإيمان ويلاحظ من ناحية أخرى أن هذه المناقشات الدينية والسياسية كانت تمهيداً لظهور علم الكلام"[١].

وليس هذا فحسب وإنما هناك عامل آخر ساعد على نشأة ووجود علم الكلام فى ذلك وهو وجود "الآيات المتشابهات وهى آيات قرآنية مشكلة مبهمة المعنى يعارض بعضها البعض الآخر الأمر الذى أدى إلى ظهور أسلوب التأويل الذى استخدمته الفرق الإسلامية للتدليل على صحة مواقفها"[٢].

هذا بالإضافة إلى عوامل أخرى خارجية نجمت عن الاحتكاك الثقافى بالأمم الأخرى وذلك من جراء نشاط الفتوحات الإسلامية التى اتسعت رقعتها فى ذلك العصر"[٣].

غير أن تناول الشعر لهذه القضايا والمسائل الكلامية كان تناولاً ساذجاً أو قل سطحيا يكتفى فيه بالإشارة تارة وبالإلماح تارة أخرى وذلك لأن طبيعة الشعر فى الأساس ليست مجالاً لذلك الاختصام الجلى كما أن تناول الشعر أيضا يأتى مصحوباً بنيرة عالية فى الهجوم والثورة على المخالفين إذ غالباً ما تكون العاطفة الدينية فيه أقوى وأوضح من صوت العقل الهادئ الذى يناقش المسائل فى أناة وتؤدة ومن أنشط الفرق الكلامية فى ذلك العصر الجبرية التى تقول بالإجبار والاضطرار إلى الأعمال وإنكار الاستطاعات كلها[٤] والقدرية وهم أصحاب القول بالاختيار أى القائلون بحرية الإرادة فالإنسان فى نظرهم مختار

(١) تاريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام ص٥٨، ٥٩ دار المعرفة الجامعية الإسكندرية.
(٢) تاريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام ص٢٦٠.
(٣) نفسه ص٢٦٢.
(٤) نفسه ص٢٦٨ (بتصرف).

فى أفعاله حرفى إرادته[١] وكذلك الخوارج بأرائهم المعروفة وفرقهم المتعددة والمعتزلة[٢].

ولعل أبرز ما يواجهنا بوضوح هنا هو ما أعلنه ثابت بن فظنة وهو من شعراء المرجئة وهم "يزعمون أن الإيمان بالله هو المعرفة بالله وبرسله وبجميع ما جاء من عند الله فقط وأن ما سوى المعرفة من الإقرار باللسان والخضوع بالقلب والمحبة لله ولرسوله والتعظيم لهما والخوف منهما والعمل بالجوارح فليس بإيمان" يقول ثابت بن قطنة:

ترجى الأمور إذا كانت مشبهة ∴ ونصدق القول فيمن جار أو عندا

المسلمون على الإسلام كلهم ∴ والكافرون استووا فى دينهم قددا

ولا أرى أن ذنبا بالغ أحدا ∴ م الناس شركا إذا ما وحدوا الصمدا

كل الخوارج مخط فى مقالته ∴ ولو تعبد فيما قال واجتهدا

أما على وعثمان فإنهما ∴ عبدان لم يشركا بالله مذ عبدا[٣]

يجزى على وعثمان بسعيهما ∴ ولست أدرى بحق آية وردا

الله يعلم ماذا يحضران به ∴ وكل عبد سيلقى الله منفردا[٤]

---

(١) نفسه ص٢٧٠.

(٢) راجع تاريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام ص٢٧٢ وما بعدها.

(٣) مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين لأبى الحسن الأشعرى ص١٣٢- سلسلة كتاب الذخائر رقم: ٦١ الهيئة العامة لقصور الثقافة.

(٤) الفرق الإسلامية فى الشعر الأموى ص٥١٣-٥١٤ (الأغاني ج١٣-ص ٥٤- دار صعب بيروت).

وليس يخفى على القارئ أن هذه الأبيات هى أقرب إلى المنظومات العلمية منها إلى الشعر– أو قل هى شعر تعليمى أو من الشعر العلمى على حد تعريف د. ضيف والعلامة الرافعى[1] وهى تحمل ما يعتقده المرجئة ويؤمنون به وبها رد على الخوارج الذين يكفرون مرتكب الكبيرة.

ويقول أبو عاصم الليثى– الذى كان خارجيا ثم أرجا:

فارقت نجدة والذين تزرقوا ∴ وابن الزبير وشيعة الكذاب

والصفر الآذان الذين تخيروا ∴ دينا بلا ثقة ولا بكتاب[2]

ولم يكن المرجئة – على الرغم – من هدوء فكرتهم– يتوانون عن الرد على من اعترض عليهم أو نأوأهم فى فكرته – كما لمسنا فى قول ثابت بن قطنة فى الخوارج وكذلك أبو عاصم – وكذلك رد شاعر آخر اسمع "محارب بن دثار الذهلى وهو أحد أئتمهم على بعض من عاب عليه ذلك من الشيعة يقول:

يعيب على أقوال سفاها ∴ بأن أرجو أبا حسن عليا

وإرجانى أبا حسن صواب ∴ عن العمران براً أو ثقيا

فإن قدمت قوماً قال قوم ∴ أسأت وكنت كذابا رديا

إذا أيقنت أن الله ربى ∴ وأرسل أحمداً حقا نبيا

وأن الرسل قد بعثوا بحق ∴ وأن الله كان لهم وليا

فليس على فى الإرجاء بأس ∴ ولا لبس ولست أخاف شيا[3]

---

(١) العصر العباسى الأول ص١٩٠ وتاريخ آداب العرب ١٥٢/٣– دار الكتاب العربي.

(٢) الفرق الإسلامية ص٥٢٧.

(٣) الفرق الإسلامية فى الشعر الأموى ص٥١٦ (الأغاني ١١/٧).

ولم يسلم المرجئة من سهام الشيعة ونيالهم وكانوا غرضاً- على ما يبدو دائما لتلك السهام- لأن الذى يقوله المرجئة فى (على) كان يغيظ ويحفظهم عليهم إذ ساء الشيعة أن يسوى المرجئة بين على ومعاوية فها هو السيد الحميرى يقول:

خليلي لا ترجيا واعلما ∴ بأن الهدى غير ما تزعمان

وإن عمى الشك بعد اليقين ∴ وضعف البصيرة بعد العيان

ضلال فلا تلججا فيهما ∴ فبئست لعمر كما الخصلتان

أيرجى على أمام الهدى ∴ وعثمان ما اعند المرجيان

ويرجى ابن حرب وأشياعه ∴ وهوج الخوارج بالنهروان

يكون إمامهم فى المعاد ∴ خبيث الهوى مؤمن الشيصبان[1]

وكان من أهم المسائل وأعوصها إشكالية تلك التى دارت حول مسألة "حرية الإرادة وهل الإنسان حر مختار فى أفعاله أو هو مجبر مسير؟ ووقف القدرية وعلى رأسهم الحسن البصرى يدافعون عن الرأى الأول اذلو كان الإنسان مسيرا بقضاء لازم وقدر محترم لبطل الثواب والعقاب وسقط وعد الله ووعيده، واصطف أمام القدرية أصحاب مذهب الجبر يناضلون عن مذهبهم وأن كل شئ بقضاء وقدر وكان هذا المذهب يرضى الأمويين لأنه يصرف الناس عن التفكير فى ولايتهم..."[2].

(١) نفسه ص٥١٧ (الأغاني ١٥/٧).

(٢) العصر الإسلامى شوقى ضيف ص٢٠٥.

ومن هذا كان شعراء بنى أمية يصدرون عن هذا المعتقد فى مدانحهم للخلفاء من مثل قول جرير وهو يمدح الوليد بن عبد الملك:

إن الوليد هو الإمام المصطفى ∴ بالنصر هز لواؤه والمغنم

ذو العرش قدر أن تكون خليفة ∴ ملكت فاعل على المنابر واسلم

ورت الأعنة والأسنة واتتمى ∴ فى بيت مكرمة رفيع السلم(١)

ولا شك- هذا كلام يرضى بنى أمية ويميل مع هواهم.... ويتناغم مع وجهتهم السياسية ولم يكن جرير يترك فرصة تسنح إلا كرر فيها هذا المعنى وأشاعه عبر قافية تسير فى الناس مسرى الأمثال- ولا تنس ما قاله وسبق أن أوردناه وهو يمدح عبد الملك بن مروان:

الله طوقك الخلافة والهدى ∴ والله ليس لما قضى تبديل

إن الخلافة بالذى أبليتم ∴ فيكم فليس لملكها تحويل(٢)

وكأنه أراد القول بأن هذه الخلافة من سنة الله التى أجراها فى خلقه وليس لسنته تحويل ولا تبديل "ولن تجد لسنة الله تحويلا" ويتردد هذا المعنى نفسه لدى الفرزدق فيقول لهشام بن عبد الملك:

رآك الله أولى الناس طرا ∴ بأعواد الخلافة والسلام(٣)

وعندما أدرك الأمويون "خطر المرجئة القدرية واتجاهها إلى المشاركة الإيجابية فى مناهضة الأمويين الجائرين حاول بعض خلفاء بنى أمية استمالتهم

(١) ديوانه ص٣٧٠.

(٢) نفسه ص٣٥٦.

(٣) ديوانه ٢٩٤/٢ دار بيروت للطباعة والنشر.

كما نقل عمر بن عبد العزيز حين طلب أئمتهم فى الكوفة من أمثال عون بن عبد الله بن عنبة الهذلى وناظرهم فى آرائهم[1]".

وقد غير عون هذا رأيه ومبدأه وأعلن خروجه على مذهب المرجئة وقال هاجيا ومفنداً آراءهم:

وأول ما نفارق غير شك ∴ نفارق ما يقول المرجئونا

وقالوا مؤمن من أهل جور ∴ وليس المؤمنون بجائرينا

وقالوا مؤمن دمه حلال ∴ وقد حرمت دماء المسلمينا[2]

نزعة التكفير:

كان أمراً طبعيا بعد أن احتدم الجدل حول مسائل عقدية وبعد ان تغلغل الخلاف وانسرب فى أعماق معتنقى هذه المسائل كان أمراً طبعيا أن تفشو نزعة (التكفير) هذه تلك التى نرى صداها يتردد دين الحين والحين كلما حدثت للناس أقضية وفتن تشابه ما لمسناه فى العصر الأموى ولعل هذا يعد من أخطر النزعات التى طفت على الشعر الأموى وبخاصة بين شعراء المسلمين معروف أن حسان بن ثابت ورفاقه كانوا يهجون كفار مكة ويرمونهم بالكفر والضلال وهذا أمر طبعي لأنه يجسد حالة ماثلة أما أن يقع هذا التكفير بين المسلمين فهذا مكمن لخطى، وربما أمكن القول بأن نزعة التكفير هذه من أخطر الآثار التى نجمت عن ذلك الغلو الشديد والتعصب الماحق الذى فشا بين الفرق المتناوئة.

---

(١) الفرق الإسلامية فى الشعر الأموى ص٥١٩ وابن سعد فى طبقاته ٢١٨/١.

(٢) الفرق الإسلامية فى الشعر الأموى ص٥١٩.

ولعل أبرز ما ورد فى هذا الصدد ما قاله عيسى بن فاتك- مشيداً بما فعله مجموعة قليلة من الخوارج مع جمع كثير من أتباع الأمويين – فى موقعة آسك.

أألفا مؤمن فيما زعمتم ∴ ويهزمهم بآسك أربعونا

كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ∴ ولكن الخوارج مؤمنونا

هم الفتة القليلة غير شك ∴ على الفئة الكثيرة ينصرونا(١)

فعيسى بن فاتك هنا يرمى الذين هزموا من أتباع بنى أمية بالكفر وذلك فى صريح من القول لا يحتاج إلى بيان "ولكن الخوارج مؤمونا" ويزيد الأمر تأكيداً" هم الفئة القليلة التى نصرت على الفئة الكبيرة " إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ والفئة القليلة هى المؤمنة والأخرى هى الكافرة والشاعر هنا يوظف هذا الحدث الذى نزلت فى بيانه هذه الآية لموقف الخوارج من غيرهم.

ومن اتهام الخوارج لخصومهم بالكفر أيضا ما قاله قطرى بن الفجاءة فى يوم دولاب:

لعمرك أنى فى الحياة لزاهد ∴ وفى العيش ما لم ألق أم حكيم

فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنا ∴ تبيح من الكفار كل حريم

رأت فتية باعوا إلا له نفوسهم ∴ بجنات عدن عنده ونعيم(٢)

---

(١) الكامل ١٨٦/٢.

(٢) الكامل ٢١٧/٢-٢١٨ وأدب السياسة ص٢٢٥.

وأم عمران بن الحارث الراسبى ترثيه بعد أن قتل فى مجالدة بينه وبين مناوئ وتصم من قتله بالإلحاد:

الله أيد عمرانا وطهره ∴ وكان عمران يدعو الله فى السحر

يدعوه سرا وإعلانا ليرزقه ∴ شهادة بيدى ملحادة غدر[1]

بل وربما رأينا من يرمى غيره بالكفر دون أن تعرف إن كان من الخوارج أو من الشيعة بل لعل ذلك من جراء تلك النزعة فيروى الكامل أن رجلا من بكر بن وائل قال فى حارثة بن بدر وقد طلب الولاية إن حارثة ليس بذلك إنما هو صاحب شراب وفيه يقول رجل من قومه أى من غير الخوارج:

ألم تر أن حارثة بن بدر ∴ يصلى وهو اكفر من حمار

ألم تر أن للفتيان حظا ∴ وحظك فى البغايا والقمار[2]

وكعب الأشقرى- لما انتصر المهلب على الأزارقة – وهى فرقة من الخوارج- فى كرمان قال يمدح المهلب ويصف الأزارقة بالكفر والحيدة عن الحق.

واستسلم الناس إذ حل العدو بهم ∴ فما لأمرهم ورد ولا صدر

كنا نهون قبل اليوم شأنهم ∴ حتى تفاقم أمر كان يحتقر

لولا المهلب للجيش الذى وردوا ∴ أنهار كرمان بعد الله ما صدورا

إنا اعتصمنا بحبل الله إذ جحدوا ∴ بالمحكمات ولم تكفر كما كفروا

---

(١) نفسه ٢/٢١٦.

(٢) نفسه ٢/٢٢٣.

جاروا عن القصد والإسلام واتبعوا ∴ دينا يخالف ما جاءت به النذر[1]

وهذه لا شك- ثمرة ونتيجة مرذولة لذلك الغلو الشديد والتعصب ولعل المجتمع المسلم ما زال يعانى من جرائها حتى وقتنا هذا.

وربما وجدنا من خرج على فرقته- واعتنق مذهبا آخر يشنع على تلك الفرقة التى كان أحد أفرادها – كما رأينا ابن عاصم الليثى وكان يرى رأى الخوارج وصار مرجئا:

فارقت نجدة والذين ترزقوا ∴ وابن الزبير وشيعة الكذاب

والصفر الآذان الذين تخيروا ∴ ديننا بلا ثقة ولا بكتاب[2]

وشعر الفرق الذى فشت فيه تلك النزعة الكلامية ملئ بأمثال هذه المناوشات العقائدية والتراشق بسهام التكفير والقذف بالإلحاد والزندقة والضلال- ولست فى حاجة هنا إلى سرد ما ورد من شعر يحمل هذه النزعة القائمة فى تاريخ الفكر الإسلامى- وكما أشرت آنفا كانت نزعة التكفير هذه نتيجة طبعية وثمرة مرة لهذا الغلو والتعصب الذى فشا وذاع بين الفرق المتناحرة.

نهاية المطاف:

وبعد هذه الإنعطافة نحو البحث عن أثر النزعة الفقهية والكلامية فى الشعر الأموى يمكن القول بأن الشعر واكب حركة التطور السياسي والإجتماعى والثقافى والفكرى ولم يكن بدعا ذلك التواكب وهذا بعد لونا من ألوان التجديد

(١) أدب السياسة ص١٥٦ عن الطبرى ٢٧١/٨.

(٢) الكامل ٢١٤/٢.

فى الشعر الأموى وأن كان قد بدأ على استحياء إلا أن هذا شأن كل جديد فى بداياته وباكورة نمائه.

كما يمكن لنا القول أيضا بأن هذا الشعر يعد وثيقة فكرية وسياسة سجلت أحداثا تاريخية تسجيلا بيانيا حمل معه عاطفة بادية وتأييدا نفسيا ربما خلا من الموضوعية فى بعض الأحيان وربما طغت الذاتية فيه على الموضوعية إلا انه يشى إلى شئ، ويقول شيئا يكشف عن قضية وإيمان بها وهل يخلو التاريخ بل وهل برئ مؤرخ ما من الذاتية؟ إن الموضوعية المطلقة أمر عزيز المنال قل أن يوجد.

ولم تكن الشاعرية فى هذا اللون متوهجة أو متألقة بل لمسنا شعرا عقليا يتسم بالفكرة الواضحة، وبالحجة شارحة، وبالمجادلة كاشفة، أنه أقرب إلى النظم منه إلى الشعر، أى نظم العلوم والفنون، وهذا تجديد أيضا- ربما سبق ما رآه د. شوقى ضيف من أن الشعر التعليمى- بدأ فى العصر العباسى. الأول[1]: ونما وترعرع فى العصور اللاحقة ولعلنى أذهب إلى أسبقية الشعر الأموى إلى هذا اللون من التجديد فى الأداء الشعري من حيث الموضوع والشكل الفنى أيضا وربما ذهبت أيضا إلا أن هذا الشعر التعليمى أو العلمى نشأ فى الثقافة العربية عربيا محضا فلم يكن هناك احتكاك فى العصر الأموي مع الثقافات الأخرى يمكن له أن يفرز هذا اللون من الشعر وإنما هو نشأ استجابة وتناغما مع وضع جديد، وأحداث جديدة، وقضايا قفزت فكان الشعراء آنذاك لسان الحال.

(١) العصر العباسى الأول- د. شوقى ضيف ص١٩٠- دار المعارف.

مراجع الدراسة

١- الإسلام وأصول الحكم على عبد الرازق ط٢ ١٣٤٤، ١٩٢٥.

٢- أدب السياسة فى العصر الأموى دكتور أحمد الحوفى ط٥ دار نهضة مصر.

٣- الأغانى للأصفهانى- دار صعب – بيروت

٤- البداية والنهاية ابن كثير ج ٩ دار الفكر العربي.

٥- تاريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام دكتور محمد على أبو ريان دار المعرفة الجامعية ط٤ ١٩٨٠.

٦- تاريخ آداب العرب مصطفى صادق الرافعى ج٣ دار الكتاب العربي بيروت.

٧- التعريفات للجرجانى – دار الكتاب العربي بيروت.

٨- تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية مصطفى عبد الرازق لجنة التأليف والترجمة والنشر.

٩- حديث الأربعاء دكتور طه حسين ج٣ ط ١٢ دار المعارف.

١٠- ضحى الإسلام دكتور شوقى ضيف دار المعارف.

١١ العصر الإسلامي دكتور شوقى ضيف دار المعارف.

١٢- العصر العباسي الأول دكتور شوقى ضيف دار المعارف.

١٣- فجر الإسلام احمد أمين الهيئة المصرية العامة للكتاب.

١٤- الفرق الإسلامية فى الشعر الأموى دكتور النعمان القاضى دار المعارف.

١٥- الكامل للمبرد مؤسسة المعارف بيروت.

١٦- مجالس العلماء للزجاج ت عبد السلام هارون وزارة الأعلام بدولة الكويت.

١٧- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين لأبى الحسن الأشعرى كتاب الذخائر ٦١ الهيئة العامة لقصور الثقافة الدواوين الشعرية.

١٨- ديوان جرير دار الكتب العلمية بيروت

١٩- ديوان الفرزدق دار بيروت للطباعة والنشر.

٢٠- ديوان الكميت جمع تعليق دكتور داود سلوم عالم الكتب ط٢ ١٤١٧، ١٩٩٧م.

٢١- ديوان كثير عزة دار صادر بيروت.

٢٢- ديوان عبد الله بن قيس الرقيات – محمد يوسف نجم.

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
توطئة فى الموجات السياسية وأثرها فى الحركة الفكرية والثقافية	٧
أثر النزعة الفقهية والكلامية فى الشعر الأموى	١٠
ملامح النزعة الفقهية	٢١
حول الخلافة والإمامة	١٦
ملامح النزعة الكلامية	٢٩
نزعة التكفير	٣٥
نهاية المطاف	٣٨
مراجع الدراسة	٤٠
فهرس الموضوعات	٤٢